الفصل التاسع

الشيخ طنطاوى
فى نظر المستشرقين

وبجانب الأقلام العربية الكثيرة التى قدّرت الشيخ طنطاوى حق قدره ، وتناولته بالثناء كل الثناء كان ثمة مخلصون من عشاق الفكر الخالد فى أوربا ممن عرفوا له مكانته ، وفسحوا مجال النقد والتقريظ لحقائقه ، فى طليعتهم :

١ – الأستاذ «سانتيلانه» المستشرق الإيطالى الشهير ، الذى يقول فى كتابه «صدى صوت المصريين فى أوربا» والذى نشر عام ١٩١١ تقريباً :

« ليس من يجهل بمصر الشيخ (طنطاوى جوهرى) هو ذلك الكاتب النحرير ، والمحرر الشهير ، ذلك الإنسان ذو العقل الكبير ، بل أحد رؤساء الحركة السياسية والاجتماعية التى انتشرت فى طبقات الشعب الإسلامى كافة تحت اسم الجامعة الوطنية » .

٢ – والعلامة الشهير «مارغيلوس» مؤلف كتاب **Early Development of Mohamedanism** تحدث عن الشيخ طنطاوى بمجلة الجمعية الآسيوية الملكية عام ١٩٣٧ ، فيمن تحدثوا من مشاهير النقاد ، وقد وازن موازنة دقيقة بين الفيلسوف «كانط» الألمانى والأستاذ طنطاوى جوهرى المصرى فقال : «إن عنوان هذا الكتاب يذكرنا بكتابين نشرهما العلامة كانط الألمانى فى السلام العام ، فإنه – وإن كان عالماً بالرياضة والفلك – لم يستعملها فى السلام العام ، أما الشيخ طنطاوى جوهرى فإنه أدخل فيه هذين العلمين ، وأضاف إليهما علم النبات والكيمياء والتشريح وعلم النفس ؛ فهذه العلوم كلها قد جعلها المؤلف وسيلة توصل إلى حل مشكلة السلام العام» .

٣ – أما الأستاذ العلامة كريستيان جب ، فقد حضر من لكسمبورج إلى مصر سنة ١٩٣٨ ليلتى العالم الفيلسوف الشيخ (طنطاوى) ويتعرف عليه شخصياً بعد ما عرفه من كتبه التى ترجم منها كتابيه « أين الإنسان ؟ » و « أحلام فى السياسة » . وقد نقلت جريدة المقطم حديثاً عنه بتاريخ ٨ من يناير سنة ١٩٣٨ أعلن فيه ذلك . ولم يكتف بهذا الحديث الصحفى بل ألقى محاضرة فى جمعية الشبان المسلمين قال فيها :

« إن كتاب (أين الإنسان ؟) يبحث فى أعقد المشكلات المالية بحثاً عجزت أوربا إلى اليوم عن الإتيان بمثله » . . وقال : « إنى أعلن أن خير كتاب أخرج للناس فى هذا الشأن هو كتاب (أين الإنسان ؟) الذى يرسم للعالم بأسلوب فلسفى عميق طريقه المستقيم إلى السلام الدائم الذى رسمه الله فى قوله تعالى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) (الحجرات : ١٣) .

٤ – دكتور ريتشارد هارتمان : أما الدكتور هارتمان فقد ذهب إلى أن الشيخ (طنطاوى) من أتباع الأستاذ الإمام محمد عبده ومن مدرسته ، وقد أيّد ما ذهب إليه بالموازنة بين آراء كل منهما فى مصنفاتهما فقال :

« لقد فصل الشيخ طنطاوى وأسهب فى تفسير الآية (١٥٩) من السورة الثانية التى تبين آيات الله فى الكون وهى التى حركت همته إلى درس العلم الطبيعى ، وهى نفسها إحدى الآيات الأساس التى استند إليها الشيخ محمد عبده فى الدعوة إلى معرفة الله من آثاره فى الكون بدلاً من الركون إلى الجدل النظرى والمناقشات الكلامية . ويردد الشيخ طنطاوى فى تفسيره لهذه الآية جميع الصيغ التى ألفنا وجودها فى تعاليم الأستاذ الإمام مثل قوله : (الإسلام دين العقل والفهم لا التقليد ، وإن العلم إذا أحسن فهمه يصبح أداة صالحة لفهم الدين . ومثل مناهضته للمغالاة فى تقديس الأولياء ، ومثل قوله : إن الاقتصار على اتباع مذهب واحد من مذاهب الفقه سبب للجمود والتأخر فى الاسلام ، وإن الاجتهاد هو خير حل لجميع العلل . . »[1] .

ونقول : لو أراد الدكتور هارتمان التمادى فى هذه الموازنة لوجدها واضحة فى آراء الشيخ طنطاوى فى كتابه « نهضة الأمة وحياتها » ؛ فقد كانت آراء كل منهما أقرب الآراء إلى آراء حجة الإسلام الإمام الغزالى ، وأنهما أحاطا باللباب الجوهرى من أقوال الفلاسفة المسلمين . ومباحثهما تدل على علم بآراء الفلاسفة المتأخرين من الأوربيين ، وأن الإمام (محمد عبده) ترجم عن الفرنسية «كتاب التربية» للفيلسوف سبنسر ، وكذلك فعل الشيخ طنطاوى حين ترجم «كتاب التربية» عن الإنجليزية للفيلسوف

(١) هارتمان جـ١٣ – ١٩١٦ ص ٨٢/٥٤ .

كانط . وكلاهما تحدث عن إصلاح الأزهر .

ولقـد حلل الدكتور هارتمان ثلاثة من كتب الشيخ طنطاوى هى : «التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم» و «جمال العالم» و «النظام والعالم» ، وقال : «وتتميز كتبه الثلاثة ولا سيما ثانيـها بحب الطبيعة حبا غير خفى ، ونلحظ فيها أثر الكاتب الإنجليزى «جون لوبوك» الذى اشتهر بحبه للطبيعة ، وأعظم ما يبدو أثره فيما كتبه الشيخ طنطاوى عن ملاذ الحياة وجمال الطبيعة وعجائب الكون .» .

٥ – العلامة الدكتور تشارلس آدمس : فى كتابه «الإسلام والتجديد فى مصر» الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ الكبير عباس محمود ، وقدّم له العلامة الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، وصدر عن لجنة دائرة المعارف الإسلامية فى أبريل سنة ١٩٣٥ – ترجم للشيخ طنطاوى ككاتب له مؤلفات كثيرة فى نصرة الدين والدفاع عنه ، وأنه أحد تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده الذين عملوا على التوفيق بين المدنية الغربية والعلم الغربى وبين الحياة الاجتماعية والدينية فى مصر ، وجعلوا لكيان ذلك كله طابعاً إسلاميا صحيحاً .

ولا يفوتنا هنا أن ننوه بفقرة جاءت فى هذا الكتاب يقول فيها المؤلف بعد أن انتهى من حديثه عن الشيخ محمد عبده : « . . وحوالى ذلك العهد (١٨٢٧ م) كان الشيخ الطنطاوى الذى سافر فيما بعد لتدريس الأدب العربى فى سان بطرسبورج ، قد بدأ يدرس مقامات الحريرى ، وهى طائفة من المقالات نالت حظا من الشهرة والتقدير . وأنشئت سجعاً فى القرن الثانى عشر الميلادى ، واشتهرت بصعوبة أسلوبها ، ووفرة مفرداتها ، وحريتها فى التعبير عن بعض العواطف والأفكار ، ولم تكن مثل هذه الموضوعات تدرس فى الأزهر من قبل » .

ومن المهم أن ننبه إلى أن الشيخ الطنطاوى هذا الذى ذكره الدكتور آدمس فى هذه الفقرة من كتابه ليس أستاذنا الشيخ «طنطاوى جوهرى» ، وإنما هو الشيخ «محمد عيّاد الطنطاوى» الذى قام برحلة إلى روسيا فى عهد «رفاعة الطهطاوى» – أما أستاذنا طنطاوى فقد قضى حياته كلها فى مصر ، ولم يسافر إلى الخارج إلاّ فى أوائل عام ١٩٣٤ حيث سافر إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج .

٦ – البارون كارا دى فو[1] : فى كتابه القيم «مفكرو الإسلام» ذكر من هؤلاء المفكرين بمصر

---

(١) الاستاذ العلامة كارّا دى فو : (القرن ١٩) مستشرق فرنسى ، عنى بالفكر الإسلامى ولاسيما الفلسفة والعلوم ، وهو الذى كتب مادة «التفسير» بدائرة المعارف الإسلامية ، ومن مؤلفاته «مفكرو الإسلام» و «ابن سيناء» ، و «الغزالى» ودراسة عن «الحكمة الإشراقية» للسهروردى المقتول . و «الإسلام : العبقرية السامية والعبقرية الآرية فى الإسلام» باريس سنة ١٨٩٨ ، ونشر نصوصاً قديمة مثل «كتاب الكرويات» ليحي المغربى ، و «الآلات والحيل» لهيرون .

ثلاثة هم : رفاعة الطهطاوى ، والإمام الشيخ (محمد عبده) والشيخ (طنطاوى جوهرى) .

ولقد رأينا أن ننقل فيما يلى ما جاء عن الشيخ طنطاوى فى هذا الكتاب مترجماً عن النص الفرنسى من الصفحة ٢٧٥ إلى الصفحة ٢٨٤ :

نقط الموضوع

(١) تفسير القرآن للشيخ طنطاوى جوهرى (٢) أسلوبه البديع لا نظير له (٣) التفسير روح جديدة مجددة لشباب الإسلام (٤) كتاب الأستاذ الشيخ طنطاوى «أين الإنسان ؟» ، (٥) موازنة أسلوبه الخيالى الفلسفى السياسى بأسلوب توماس موروس Thomas Morous وكامبانيلا Campanella وباسيفيكس Pacifeques والمعاصر هانرينر Han-ryner من الأوربيين وابن الطفيل من الشرق ، (٦) وموازنته بالفارابى والقزوينى مع نضج فكره العصرى ، (٧) موازنة آرائه بآراء نيتشه الألمانى ، وداروين الإنجليزى فى نظام الأمم السياسى العام ، (٨) كتابه فوق المستوى الفكرى العام . (٩) أسلوبه يحدث فى الشيوخ طرب الشباب وسحره يقلب الطبائع البشرية إلى الكمال ، (١٠) تنبأ الأستاذ فى كتابه بالحرب الكبرى قبل وقوعها بأربع سنين ، (١١) هذا الكتاب شرف لمصر والإسلام .

* * *

الشيخ طنطاوى جوهرى المصرى الجنس أبرز لنا كتباً كثيرة فلسفية دينية – وهو روح قوية مفيدة يملك الذوق العلمى ، ويشعر بنشاط قوى وحماسة بما فى الأمم الإسلامية من النقص الشائن الذى حط من كرامتها فى عيون أمم الغرب ، ويجد فى بث فكرته ونشاطه وحماسته بين معاصريه فى أقطار الإسلام ليبرهن لهم أن اكتساب العلوم ليس مما يضاد الإسلام فحسب ، بل إن العلوم مجددة لشباب الإسلام . وتكسبه قوى جديدة ، ويتبين من كلامه أنه رجل السلم والإنسانية الراغب فى أن يرى المودة مشيدة الصروح بين الأمم ، معتقداً أن الديانات تسعى لنشر هذه المودة العامة . كما يظهر من ناحية أخرى أنه مخلص صادق أمين ، وهذا الحكم استنتجناه من أسلوبه السهل المنتعش الحياة ، العالى النادر الوجود . وبالجملة فالأستاذ يتجلى فى نفسى من كلامه بهيئة محبوبة ذات روح لطيفة وشخصية بارزة . فسّر القرآن بطريقة فريدة تستحق الاحترام والإجلال ، شائقة جديدة ، ومع ذلك لم يشذ فيها عن آراء المتقدمين .

وابتدأ بهذا التفسير وهو مدرس بدار العلوم ، وكان يلقى على تلاميذه تفسير بعض الآيات . وتلقفته جميع الأقطار الإسلامية وانتشر فيها أى انتشار والصفحات الأولى منه تريك حجة واضحة وآية ظاهرة وقوة قاهرة وتحث على مطالعة العلوم الطبيعية . والمؤلف يضع موازنة بين العلوم الطبيعية

التى شغلت أذهان مفكرى الإسلام والعلوم الفقهية ، ويقول : إن القرآن لم ينصح بمطالبة العلوم الطبيعية فقط ، بل جعلها فى المكان الأعلى فوق العلوم الأخرى . وفى القرآن كما يقول الأستاذ (١٥٠) آية تدل على العلوم الفقهية مع أن فيه (٧٥٠) آية تدل على العلوم الطبيعية . وهذا حساب غريب جدًّا . ولكن هذا الحساب مزين بالجمال وهو خير مشجع لقرائه – وهو يقسم العلوم قسمين : العلم الأول : وهو كل العلوم الطبيعية ، علم الآفاق والأنفس بحسب هذه الآية «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم»[1] والعلم الآخر هو علم الفقه وجاء فى القرآن «الحمد لله رب العالمين» ، وأيضا «قل انظروا ماذا فى السموات والأرض»[2] . قال : فنحن معاشر المسلمين يجب علينا أن نقرأ عجائب المخلوقات كما نقرأ الفقه ، وبهذه العلوم الكونية نعرف جلال الله تعالى وجماله فنرتقى فى الفنون والصناعة والزراعة والتجارة . بهذا أدعو جميع الأمم الإسلامية الشرقية منها والغربية . وإلاّ فلماذا يقول الله تعالى «ليظهره على الدين كله» ؟ ، وكيف لا يكون الإسلام فوق الأديان وهو الذى أوجب مطالعة العلوم الكونية مع أن الديانات الأخرى قصارى أمرها ألاّ تتعرض لنبذها ؟ والعجب كل العجب أن الأستاذ لم يقتصر بمهارته الفائقة على الحث على مطالعة العلوم الطبيعية بل أيدها بالآيات القرآنية المقدسة وهو دائم الوثوب قوى الهجوم بديع الأسلوب يقول : «أنذر المسلمين إذا لم يعملوا بقولى أن تغشاهم غاشية من عذاب الله كما غشيت عاداً وثمود ! وقد ابتدأت تظهر الدلائل وقد أدركها المسلمون وهو تلك الطيارات القاذفات القنابل على القرى والشيوخ والأطفال . إن علوم الطبيعة محققة مكشوفة واضحة لا يعتورها اختلاف كالاختلاف فى الأحكام الفقهية التى فرقت بين المسلمين ليفسّر علماء الإسلام للمسلمين عجائب الشمس والقمر والزهر والثمر وعجائب المعادن والنبات ؛ وحينئذ تكون المذاهب الإسلامية كلها تدرس علومًا متحدة فيرى السنى والشيعى والزيدى أنهم جميعا متفقون فى جميع علوم الكائنات التى هى الغذاء لنوع الإنسان ولا يكون اختلافهم إلاّ فى علوم الشريعة التى هى كالدواء . وما أقل الدواء بالنسبة للغذاء،

«الإنسان لا يعيش إلاّ بالغذاء فلا يستغنى عنه ، أما الدواء فإنما يكون وقتا دون وقت . أيها المسلمون ، اطلبوا علوم الغذاء وعلوم الدواء : أى العلوم الكونية والعلوم الشرعية . وجميعها يطلبها القرآن وقد اعتنى بعلوم الغذاء أشد من عنايته بعلوم الدواء ؛ فمالى أراكم عما قدمه الله معرضين ، وعلى ما أخّره الله عاكفين ؟ قدم تربيته للعالمين ورحمته للمخلوقين على العبادة وهدايته الصراط المستقيم . ولقد ساءنى والله ما أرى من إعراض بعض العلماء بالدين عن عجائب الخلق ، ولقد كنت أود أن

---

(١) فصلت وتسمى أيضاً حم السجدة : ٥٣ .

(٢) يونس : ١٠١ .

أرى أولئك الذين نزحوا إلى أوربـا بعلم الطبيعة معرضين ولعجائب الخليقة مسارعين . ولكنى رأيتهم منصرفين إلى الوظائف الوقتية والأعمال الإدارية ، وما رأيت أحداً منهم بالعلوم الكونية مغرماً فتشابه فى بلادنا العلماء الدينيون والشبان الذين هم للكون دارسون : فالأولون على أحكام الفقه مقتصرون ، وهؤلاء بالوظائف قانعون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، إلاّ قليلاً من الفريقين نالوا حظا عظيما . قال الله تعالى : (وقليل ما هم) ، وقال : (وقليل من عبادى الشكور) . .

والشيخ طنطاوى لا يقتصر على الحث والتحريض بلا برهان ، بل يؤيد الوعظ بالبراهين ويضرب الأمثال . إنه فى السطور الأولى من الفاتحة وهى السورة الأولى من القرآن هجم هجوماً شديداً وأظهر مقصوده من تفسير القرآن بوضوح تام . وقد قام فى ذلك مقام العلامة القزوينى مؤلف عجائب المخلوقات . ولكن الشيخ «طنطاوى» قزوينى العصر الحاضر منه استمد علمه لا من القديم . فتراه فى تفسير البسملة التى هى أول الفاتحة يذكر عن العلامة الأستاذ ميلن إدوارد أن حيوانا يسمى (اكسيلوكوب) يعيش منفردا فى فصل الربيع ومتى باض مات حالاً . فمن رحمة الله أن ألهم هذا الحيوان أن يبنى بيتا قبل أن يبيض فيعمد ذلك الحيوان إلى قطعة من الخشب فيحفر فيها حفرة مستطيلة ، ثم يجلب طلع الأزهار وبعض الأوراق السكرية ويحشو بها ذلك السرداب ، ثم يبيض على ذلك بيضه ، ثم يأتى بنشارة الخشب ويجعلها عجينة ، ويجعل فيها سقفا لذلك السرداب . والحكمة فى ذلك أن هذه البيضة متى فقست وخرجت الدودة كفاها ذلك الطعام سنة ، وهى المدة التى تستطيع تلك الدودة أن تحصل فيها قوتها . ويشرح أيضا عجائب النباتات منتقيا منها النباتات المعروفة فى مصر مثل القمح والذرة والنخل ، ويجتهد أن يفهم القارئ بإيضاح تام ويستخدم فى ذلك الطريقة العلمية الحديثة . قال :

«لقد توجهت إلى مدرسة الزراعة المصرية بالجيزة ، فأرونى حبة القمح مكبرة مجسمة إلى آخره» . . وقال عند كلامه عن الذرة فى تفسيره (الحمد لله رب العالمين) : إن المسلمين فى أنحاء المعمورة يأكلون الذرة أو يشاهدون مزارعها وأكثرهم يجهلون كيف ربى الله الحبة الواحدة فى (المطر) المسمى بالكوز عند العامة فى بلادنا المصرية وهو مجمع الحب الذى يتكون حوله سطوراً منتظمة لو يعلم المسلمون كيفية تربية الله للحبة الواحدة لعجبوا من صنع ربهم ، ولفهموا كيف يربى العوالم كلها . إن لكل عود من أعواد الذرة ذكوراً فى أعلاه وإناثا فى وسطه ، أما الذكور فهو ما يسميه العامة (الكذاب) وهو أغصان بعضها فيها طلع مخفى عن الناس ، ذلك الطلع ينزل على ذلك (المطر) الذى هو مجمع الحب وله خطوط طويلات حريرية حمر أو بيض ، تلك الخيوط الدقيقة مثقوبة من أوسطها ثقبا لا يشعر به الناس فينزل الطلع من أعلى العود إلى تلك الخيوط التى يسميها العامة فى مصر

(شرابة) ، فيدخل ذلك الطلع فى التجويف الذى فى تلك الخيوط ، ويسرى حتى يصل إلى محل الأنثى فى (المطر) أى محل الحب فتلقح تلك الأنثى فتخرج حبة واحدة بذلك التدبير ! فانظر وتعجب فى ذلك (المطر) من حبة وكيف كان لكل حبة رحم مخصوص ولقح ينزل على ذلك الخيط حتى يصل فى التجويف إلى الأم فتحمل بتلك الحبة . » ولقد ذكر هذا فى كتاب « جواهر العلوم » وأوضحه أيما إيضاح .

هذا هو الأسلوب الذى جرى عليه المؤلف فى تفسيره ، فلينظر القارئ كيف مزج العلوم الحديثة بالتفسير علماً منه بأن ذلك مفيد جدًّا ، وهو – وإن كان مغرماً بذلك – لم يترك ما سطره كبار الشعراء عند المسلمين ، بل أخذ يوازن بين كلامهم وسورة الفاتحة ، وفوق ذلك لم يدع القصص التاريخية بل أدخلها تفسيره ؛ فلا تعجب إذن من أن تفسيره ذو صيغة جميلة حديثة سامية عجيبة لم ينسج على منوالها ناسج ، فانظر ما قاله : تأمل قول زهرة لرستّم قائد جيش الفرس إذ ذاك (إنا لم نأتكم لطلب الدنيا وإنما طلبتنا الآخرة . فقال له رستّم ما دين الإسلام ! قال : أن تشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله . قال : وأى شيء أيضا ؟ . قال : إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله . والناس بنو آدم وحواء إخوة لأب وأم) .

ثم قال المؤلف : ألست ترى أن هذه المحاورات والخطب تتقارب هى وما ذكرناه فى فاتحة الكتاب من أن العبادة والحمد مختصان بالله عز وجل ، أولا ترى أن الإسلام كان له فى الصدر الأول معنى غير الذى يفهمه المسلمون الآن ؟ والأمة الإسلامية اليوم غير أولئك الذين كانوا فى القرون الأولى ، وإلاّ فكيف يسمع منهم العدل والمساواة وألا يستبعد بعضهم بعضا وأنهم خلفاء الله فى أرضه ليعطوا عباده الحرية ؟ فالإسلام إذ ذاك مبنى على الفهم والعلم والعقل ، فأما الآن فإنه مجرد مظاهر وأعمال فلا يصل إلى أعماق القلوب ؛ فلذلك انحطت الأمم الإسلامية اليوم ، وقد آن أنْ ترجع إلى عزها القديم ومجدها العظيم .

ولقد نشر الشيخ طنطاوى من قبل كتاب « أين الإنسان ؟ » المطبوع سنة ١٩١١ الذى قرّظه الأستاذ سانتيلانه الإيطالى العالم الكبير فى المجلة الشرقية بروما لسنتها الرابعة . وللأستاذ كتب أخرى مثل « نظام العالم والأمم » و « نهضة الأمة وحياتها » وغيرهما . وكتاب « أين الإنسان ؟ » هذا وضعه المؤلف بهيئة رواية فلسفية سياسية ؛ فهو فى هذا يشبه الفارابى من حيث أصل الفكرة ، وابن الطفيل من حيث الأسلوب والمنهج . فجمع بين دقة الفكر وجمال الأسلوب . .

والأستاذ فى هذا الأسلوب يذكرنا بأساليب علمائنا وأدبائنا فى أوربا أمثال توماس موروس Thomas Morous وكامبانيلا Campanella ، ومعاصرنا هانريز Han-ryner.

وصف الأستاذ الجامعة الإنسانية وصفا لا يشرفها بالكمال ، بل أظهر نقائصها ، وأبان سوء أفعالها ، وأخذ يُسْدِى نصائح ويبدى حججاً لالتئام الأمم واتحاد الدول ، بل يطلب ما فوق ذلك وهو الحب والإخلاص العام والمثل الأعلى فى ذلك ، ويتمنى (كما تمنى الفارابى) أن تكون الدول كلها مؤسساً نظامها على الحب العام وتبادل المنافع ، ولكن دولنا الآن فى الأمم الأرضية – وإن كانت ارتقت الآن ارتقاء ماديا – لم يؤسس بنيانها إلاّ على تبادل الحروب وتخريب المدن وقعقعة السلاح ! فأما تلك الأفكار اللذيذة والمحبة العامة فهى مغلوب عليها . إن الأساس الذى بنى عليه أمر الدول الآن هو ما سطره داروين الإنجليزى ، وقفى على آثاره نيتشه الألمانى من إبادة الضعفاء وغلبة الأقوياء !

إن للمؤلف خيالاً سامياً غزير المعنى واسعاً ؛ فإنه بينما كان ينظر إلى السماء فى ليلة من ليالى شهر ربيع سنة ١٩١٠ وهو يبحث فى مذنب هالى الذى يرجع مرة بعد أخرى . وأخذ يقول : ياليت شعرى ! إذا كانت هذه السماء الصافية جميلة بهجة النجوم منظمة فهل فيها سكان ؟ وهل سكانها مثلنا فى الظلم والقتال ، أو هم فى هناء وعدل كما نرى فى نظام السموات ! وبينما هو مستغرق فى تأملاته – إذ وافته روح مشرقة النور بهية الطلعة فى هيئة شاب جميل الطلعة حسن الشكل ، فأخذت هذه الروح تناقشه ثم اقترحت عليه أن يجول معها جولة فى السموات العلا ، فلبى طلبها بشوق عظيم . وهذه الفكرة الخيالية تذكرنا بأحـــــلام Pasteur suédous Siudenborg ، ثم إن الروح أخذته وطارت به فى ساحات الفلا إلى عوالم غير معلومة لنا حتى وصلت إلى كوكب سيار أبعد من نبتون لم يكتشفه الناس للآن ، فرأى فى ذلك الكوكب أربعة آلاف أمة . وتعجب المؤلف من نظام هذه الأمم الكثيرة على هذا الكوكب ، وقد حضر من كل أمة نواب عنها ، واجتمع أولئك جميعا فى مجلس واحد عام يدبر الأمم كلها . ولقد أدهشه ما رأى وما سمع من آراء وجد ونشاط وعدل وصدق ، ووازن بينهم وبين جمعيات الأمم الأرضية الذين هم عن الصدق حائدون وعلى الحرب عاكفون وفى النزاع والجدال مجدون !

إن فى الكتاب كثيراً من المحاورات العلمية السامية التى تسوق العقول الإنسانية إلى مجال البحث الدقيق والحكمة الشريفة : ومن هذه المحاورات ما سأذكره ، وذلك أن شيخاً كبيراً من علماء هذا الكوكب أخذ يحاور الأستاذ محاورات لذيذة سارة شريفة ، وهذا العالم اختصاصى فى علوم الأرض والمريخ . فسأل المؤلف قال : أمن الأرض أنت ؟ فقال نعم . قاله له : أى حيوان أنت ؟ فقال : الإنسان . قال : ماذا فعلتم بإنسانيتكم ؟ فقال له : قد كشفنا عجائب الكون ؟ وانتفعنا مما حوت الأرض مما كشفناه ، ألست ترى إلى البريد والطرق الحديدية والقطر الجارية والبرق الذى له سلك والذى لا سلك له وقد طرنا فى الجو ، وركبنا متن الماء ، واستولينا على الطبيعة ! فقال : ياعجبا

لكم ! ما هذه إلاّ أمور حيوانية ترقى الأحوال الجسدية ، أما تربية النفوس البشرية والجمعية الإنسانية والصدق فى الأقوال والحب العام والإخلاص التام فأنتم عن ذلك كله معرضون . وما هذا النجاح الذى وصلتم إليه فى أرضكم إلاّ آلة للتخريب والتدمير ! فياليت شعرى ! أى رقى هذا ؟ إن هذا إلاّ رسوخ فى الجهالة والضلال والنكال !

ومن عجب أن المؤلف قد طبع هذا الكتاب سنة ١٩١٠ وقد تكهن فيه بطريق حكمى شعرى بما جرى بعد ذلك بأربع سنين وهو الحرب الكبرى .

إن مقصود هذا الكتاب كله وما فيه من المحاورات التصورية هو نشر التعليم العام والحب بين الشعوب والأمم بحيث يمتزج بأغانيهم وأشعارهم وموسيقاهم حتّى يكون ذلك إلهاماً للأطفال فى أول حياتهم . وأن يكونوا محبين لجميع الأمم كارهين للحرب ، ناظرين لجمال الطبيعة محترّمين الجمعية الإنسانية أى احترام .

هذا الكتاب بما فيه من جمال العلم والحكمة يبعث فى الشيوخ نشوة الشبان ويبعث فى النفوس الإنسانية غراماً وولوعاً ، ويقلب الطبائع الإنسانية بما فيه من السحر الحلال . وهو يدعو الأمم كلها أن تكون أسرة واحدة تامة النظام ، ويهيئ الأطفال فى الأمم كلها لأن يكونوا على نسق الأمم التى زارها والنصيحة التى سمعها من أولئك العلماء .

فمثل هذا الكتاب المملوء حكمة وعلماً ، الغزير المادة ، السامى الفكرة ، الناتج من تفكير عميق وبحث يقل نظيره – يدعو دعوة حارة إلى سعادة الأمم أجمعين ، ويدعو أيضا بالحماسة الشديدة إلى التجديد العام ، وهو يشرف مصر والإسلام ، وجدير بالاحترام .

وقد قدم هذا السفر الجليل إلى مؤتمر الأجناس المنعقد فى لندن فى شهرى يوليو وأغسطس سنة ١٩١١ – انتهى .